يونس عليه السلام لا تحوم حوله الشبهة

د. شحاتة حسيب الفيومي

مدرس بقسم التفسير بالكلية

تميل النفس البشرية دائماً إلى سماع القصة . لتأخذ منها عبرة تعتبر بها . وتتوق إلى سماعها . لأن فيها السلوة والروح والريحان . وهذا الميل يلازم الإنسان منذ نعومة أظفاره . فأمه تظل تروى له قصة تلو قصة حتى يغشيه النعاس . فالنفس البشرية بطبيعتها تهأ(١) بسماعها . وتجول أحداث القصة بخاطر من يستمع إليها . فهو يحترها فى خاطره بعد أن يفرغ راويها من سردها . ولما كان للقصة تأثير السحر فى الأنفس البشرية ساق الله تعالى منهج الإسلام فى القرآن مشتملا على جزء كبير من القصص . وقصص القرآن يخالف القصص الإنسانى . لأن القصص الإنسانى يسبح حاكيه وناسجه فى الخيال ويطاوعه قلمه السيال فقلما يشتمل على شىء من الواقع . وأيضاً ربما يركن إلى عواطفه فيبدو هذا فى روايته للقصة . وقد تكون القصة البشرية للتسلية وضياع الوقت وتكون خالية من الهدف . وأيضاً تتناول القصة البشرية موضوعات متعددة . فهى تقص قصة للسرقة وقصة للزنا والفجور وكيفية الوصول إلى المرأة وقد يقص القاص قصة حب وما أكثر هذا فى عصرنا وقد يقص قصة بوليسية ملتوية الأفكار . سابحة فى الخيال ترهق القارىء عند قراءته . أما القرآن فهو يخالف البشر فى سردهم للقصص . فالواقعية سجيته . ويهدف بهذا القصص الوصول إلى الغاية وهى العبرة والموعظة . ويعالج جميع الأقضية البشرية من شمائل ورذائل بأسلوب لا يثير فى القارىء شهوة أو يزج به فى أوحال الرذيلة .

---

(١) تهأ : تأنس .

ومن القصص القرآنى قصة فريدة فى أحداثها شائكة فى أسلوبها تورد الضال فى فهم معانيها موارد التهلكة هذه القصة هى قصة نبى الله يونس عليه السلام :

نسبه :

هو نبى الله يونس بن متى ومتى هو اسم أبيه فلقد ورد عن ابن عباس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال (ماينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى ونسبه إلى أبيه)(٢) ولقد عقد له العقد القديم إصحاحاً سماه باسم يونان بن أمتاى ولقد اختلف فى موطنه فقال الحافظ بن كثير (أبعثه الله إلى أهل قرية « نينوى » وهى قرية من أرض الموصل فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه)(٢) .

ولقد تحدث العهد القديم عنه (وصار قول الرب إلى يونان بن أمتاى قائلا قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد عليها لأنه صعد شرهم أمامى . فقام يونا ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب)(١) .

والذى أراه :

أن أحداث نبى الله يونس عليه السلام كان مسرحها فلسطين بدليل وجود يافا وهى مدينة تقع جنوب تل أبيب عاصمة العدو الصهيونى على ساحل البحر الأبيض المتوسط . وأستبعد أن تكون الأحداث فى منطقة

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٥ ص ١٣٤

(٢) تفسير القرآن العظيم جـ ٥ ص ٣٦٠

(٣) العهد القديم إصحاح يونان آية ١ — ٣

المرصل بأرض العراق لأن موطن الحيتان البحار والعراق ليس بها خلجان بحار متداخلة فيها ويحتمل وجود مدينتين باسم نينوى إحداهما بالشام وكانت مسرحاً للأحداث اندثرت قبل الثانية والثانية بالموصل بأرض العراق وهذه بقيت بعد المندثرة وظن المفكرون أن يونس قد أرسل إلى أهلها . ولقد أوضح العهد القديم إلى أن أحداث يونس كانت فى فلسطين ولقد رجحت ماجاء فيه وإن كان محرفاً عقائدياً إلا أنه أقدم كتاب تاريخى للبشر .

القصة كما صورها القرآن :

أتت هذه القصة فى مواطن مختلفة وفى سور من القرآن متباينة وهذا دأب القرآن فى قصصه يسوق القصة متكاملة فى مواضع شتى فيأتى بالسورة فى ثناياها جزء من القصة فيه عبرة تفتقر إليها السورة وهكذا يكون القصص القرآنى ولقد وردت قصة يونس متكاملة على هذا النحو :

قال تعالى :(وذا النون إذذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم و كذلك ننجى المؤمنين)(١) .

وقال تعالى (وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين)(٢) .

(١) الأنبياء آية ٨٧ ، ٨٨

(٢) الصافات آية ١٣٩ — ١٤٨

وقال تعالى (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين)(١) .

وقال تعالى (فلو كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين)(٢) .

مايوهم الشبه حول يونس عليه السلام :

لقد وردت ألفاظ وجمل أثناء سرد الآيات القرآنية لقصة يونس عليه السلام وهذه الألفاظ والجمل قوله (إذ أبق إلى الفلك المشحون) ، (فالتقمه الحوت وهو مليم) (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه) . (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم) .

وطفق المفسرون في كل عصر يفسرون هذه الآيات وتحامل بعضهم على هذا النبي من هؤلاء العلامة أبو السعود قال (« إذ أبق» أي هرب وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من غير إذن ربه حسن إطلاقه عليه)(٣) وتحامل عليه الألوسي ونقل عبارة أبي السعود كما هي . وازداد تحاملا عليه ولم يفت سليمان العجيلي الشهير بالجمل الوقوع في هذا النبي قال (وفي الخبر في وصف يونس أنه كان ضيق الصدر فلما حمل أعباء النبوة تفسخ تحتها تفسخ البعير تحت الحمل الثقيل فمضى على وجهه مضى الآبق الناد وقال ابن مسعود أبق أي من أمر ربه حين أمره بالعود إليهم بعد رفع العذاب عنهم وقد كان يتوعد قومه بنزول العذاب في وقت معلوم وخرج من عندهم

---

(١) القلم آية ٤٨ — ٥٠

(٢) يونس آية ٩٨

(٣) أبو السعود جـ ٧ ص ٥٥٠

فى ذلك الوقت فأظلهم العذاب فتضرعوا فرفع عنهم ولم يعلم يونس بتوبتهم فلذلك ذهب مغاضباً و كان من حقه أن لا يذهب إلا بإذن جديد)[1] .

وحمل عليه تحاملا شديداً ليس فيه شفقة ولا هوادة الأستاذ عبد الوهاب النجار فى كتابه « قصص الأنبياء » قال (وفى اعتقادى أن يونس كلف بالذهاب إلى أولئك القوم عقيب نبوته ولم يكن قد مرن على النبوة وواجباتها وآداب أهلها لأن العلم بذلك يستدعى مدة وتكرر الوحى والازدياد من معرفة الله تعالى والارتياض على الوحى وتلقيه . فحداثته فى النبوة هى التى خيلت إليه ماقلناه من أنه خيل إليه أنه بابتعاده وتغربه فى البلاد ربما استتبع إعفاءه من تلك المأمورية أضف إلى ذلك أنه كان حدث السن فقد أورد الألوسى فى تفسيره أن سنه كان ثمان وعشرين سنة ومن كان حديث العهد بالنبوة ومن فى مثل سنه يغفر الله تعالى لهم بعض ماعملوا عن غير تمرد وقصد جازم إلى المعصية)[2] .

والذى أراه :

أن يونس عليه السلام أرسله الله إلى أهل نينوى فى فلسطين وهو كغيره من الرسل أرسله الله على رأس الأربعين وأما ماساقه الألوسى فلا أساس له من السنة فهو يريد بذلك أنه كان حديث السن ليست لديه الدربة فى الرسالة كما رماه الجمل بأنه كان ضيق الصدر فدعا قومه إلى دينه فصدفوا عن دعوته وأبوا قبولها فغضب يونس من صدفهم وإباتهم فهاجر تاركا دار الكفر كإخوته من الأنبياء باحثاً عن قوم آخرين يبث فيهم دعوته بيد أن هذه الهجرة كانت إجتهاداً من يونس وليست بوحى من

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ ٣ ص ٥٥٣

(٢) قصص الأنبياء ص ٢٦٢

عند الله فركب سفينة مشحونة فابتلاه الله تعالى ببلاء شديد لأن البلاء لأن البلاء يصقل النفس ويجعل صاحبها كالطود الشامخ يهزأ بالعواصف فلما غادرت السفينة الشاطىء اضطربت ولم يستطع قبطانها التحكم فيها فهو لا يستطيع العود منها إلى مرفئها التى انطلقت منه وكادت تهوى فى قاع البحر فأرادوا أن يخففوا من عبئها الثقيل فاقترعوا فخرج سهم يونس عليه السلام فألقى بنفسه فى البحر لينجو من فى السفينة المشحونة وهذه أخلاق الأنبياء فقيض الله له حوتا فالتقمه رحمة به من الهلاك فى قاع البحر وهو مليم نفسه على ترك القوم وتحرك به الحوت وغاربه إلى قاع البحر فاجتمعت ظلمات ثلاث ظلمة الليل وظلمة قاع البحر وظلمة بطن الحوت فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجاب الله دعاءه ونجاه من الغم وبعد ثلاثة أيام كان جوف الحوت حصناً ليونس فنبذه بالشاطىء فكأن الحوت كالكاره له وبدأ عليه التعب والإعياء فأنبت الله عليـــه شجرة القرع فأوراقها ذو طابع كبير وخشنة الملمس فلا يقف فوقها الذباب حتى لا يضر يونس عليه السلام ثم أرسله الله إلى قومه السابقين فلقد آمنوا بيونس حين تركهم وخافوا نزول العـذاب عليهم فجأروا إلى الله بالدعاء ضاجين من الله أن لا ينزله .

مدة اللبث فى جوف الحوت :

لقد أختلفوا فى المدة التى مكثها فى جوف الحوت قال قتادة ثلاثة أيام وقال جعفر الصادق جمعه، وقال سعيد بن الحسن البصرى وأبو مالك مكث فى بطن الحوت أربعين يوماً ، وروى عن الشعبي أنه التقمه ضحى وقذفه عشية ، ورأي أنه لبث فى بطن الحوت ثلاثة أيام كما قال بذلك قتادة فهذه المدة كفيلة فى أن تسقمه لامتناعه عن الطعام والشراب أما مدة الأربعين فهى تهلكه ومن وجه آخر لو عرف الناس أن الحوت قد التقمه ومكث فيه أربعين يوماً ثم عاد لقالوا إن هذا سحر وأبو الإيمان به ولو مكث من الضحى إلى العشية لم تكن كفيلة لسقمه ، فتكون المدة ثلاثة أيام .

تفسير الآيات الموهمة للشبه حوله :

إن يونس رسول من عند الله وهو معصوم ويعرف مقامه من سيده فأخلاقه كأخلاق غيره من الأنبياء فليس آبقا من الله وليس مغاضباً من رسالته ولا من مرسله، وليس مملوءاً غيظاً منهما ، ونهى الله رسوله محمداً عن أن يسلك سلوك أخيه يونس لا يقدح فى رسالته ولا يضع من شأنه ولا ينال من قدره فإنه أى يونس عليه السلام لم يصبر الصبر الجميل على قومه وهذا لا يقدح فى عصمته ولا فى شخصه : وعلى ضوء ذلك يمكن تفسير الآيات الواردة فى هذا الشأن بما يأتى :

أولا : قوله تعالى : (إذ أبق إلى الفلك المشحون ، فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم) .

ففى هذه الآية استعارة : شبه خروج يونس معتمداً على إجتهاده دون وحى من الله بالعبد الآبق بجامع إعدم الإذن فى كل ثم حذف المشبه به وأقام شيئاً من لوازمه وهو الإباق ثم اشتق منه الفعل الماضى أبق على

سبيل الإستعارة المكنية التبعية ، فيكون المعنى: خرج يونس عليه السلام باجتهاده إلى السفينة المملوءة فاضطربت فى البحر فاقترعوا فخرج سهمه فكان من المزومين .

فالتقمه الحوت وهو ملوم نفسه على هذا الإجتهاد ولم يقل الله تعالى ، فابتلعه الحوت لأن الإبتلاع فيه مضغ للشيء أما الإلتقام فليس فيه مضغ فالحوت لم يقطع له لحماً ولم يهشم له عظماً بل أحتفظ به فى جوفه.

ثانياً : قوله تعالى : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليـــه) .

وأذكر صاحب الحوت وقت أن ذهب مغاضباً فالمغاضبة كانت من الطرفين غضب يونس من قومه لعصيانهم وغضب القوم منه لأنهم لا يرغبون فى ترك مانهم عليه فظن أن الله لن يضيق عليه عند إجتهاده فخرج فكان البلاء .

ثالثاً : قوله تعالى : (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ، لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ، فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) .

هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بالصبر وأن لا يضجر من قومه فلا يكون كيونس الذى التقمه الحوت فنادى وهو مكظوم غيظاً أى مملوء من قومه الذين لم يؤمنوا به بادىء ذى بدء ومن نفسه التى ضجرت فاجتهد لها فى الخروج فلولا أن لحقته وعمته رحمة الله لألقى على الشاطىء وهو مذموم على اجتهاده فكان التقام الحوت له بلاء لاعقابا ، والسر فى التعبير بقوله تداركه دون أدركه إن المعنى يزيد بزيادة الحروف فكان التعبير بتداركه دالا على سرعة النعمة إليه وكثرتها، وفى النص أمر ببعد يونس عن موطن الذنب وهو التعبير بلولا يدل على أنه لم يقع منه ما يوجب الذنب والذم

أو أنه قد يكون من باب ترك الأفضل أو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين. (فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) أى أعاد وصله بالوحى بعد فترته وجعله من النبيين .

حال القوم بعد خروج يونس عليه السلام :

لما خرج يونس عليه السلام من بين أظهرهم مغاضبا لهم ووعد بأن العذاب سيحل بهم فلما خرج أدركوا أن النبي لا يكذب خرجوا إلى البيداء يسوقون أنعامهم حاملين أطفالهم ، مفرقين بين الأمهات والأولاد فى الإنسان والحيوان، وتضرعوا إلى الله تعالى وأختلطت الأصوات وجأر الإنسان ، ورغت الإبل والفصلان .

وخارت البقر والولدان ، وثغت الغنم والحملان ورجعوا إلى الرحمن ، فرفع الله عنهم العذاب قال تعالى : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) .

وهم القوم الذين أرسل إليهم قبل ذلك ولقد ذهب البغوى إلى أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من بطن الحوت وهذا القول ضعيف لأنه استدل بقوله تعالى : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) ولكن عبر الله تعالى بقوله وأرسلناه لأنه أوحى إليه بشيء غير موجود قبل ذلك وبين الله عددهم ولم يبين عددهم قبل ذلك .

النعم التى أنعم الله بها على يونس :

لقد أنعم الله على هذا النبي بنعم متعددة منها:

أولا : نعمة الحفظ فى بطن الحوت من الغرق والهلاك .

ثانياً : نعمة الإخراج من البحر وإلقاؤه بالشاطىء برفق دون أن يبقى فى جوفه إلى يوم القيامة .

ثالثاً : نعمة إنبات اليقطينية .

رابعاً : نعمة تتابع الوحى بعد فتوره .

الأحاديث الواردة فى شأنه :

عن عبد الله رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال (لا يقولن أحدكم أنى خير من يونس)(١) .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال (لا تفضلوا بين أنبياء الله فإنه ينفخ فى الصور فيصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث فإذا موسى آخذ بالعرش فلا أدرى أحوسب بصعقته يوم الطور أم بعث قبلى ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس ابن متى)(٢) .

---

(١) البخارى حـ ٤ ص ١٩٣

(٢) البخارى حـ ٤ ص ١٩٤ جز من حديث .